رابندرانات طاغور

الهلال

مختارات من قصائده

ترجمة

د. بديع حقي

مراجعة

مصطفى حبيب

الكتاب: الهلال (مختارات من قصائده)

الكاتب: رابندرانات طاغور

ترجمة: د. بديع حقي

مراجعة: مصطفى حبيب

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

طاغور، رابندرانات

الهلال (مختارات من قصائده) / رابندرانات طاغور، ترجمة: د. بديع حقي، مراجعة: مصطفى حبيب – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٨٦ ص، ١٨*٢١ سم.

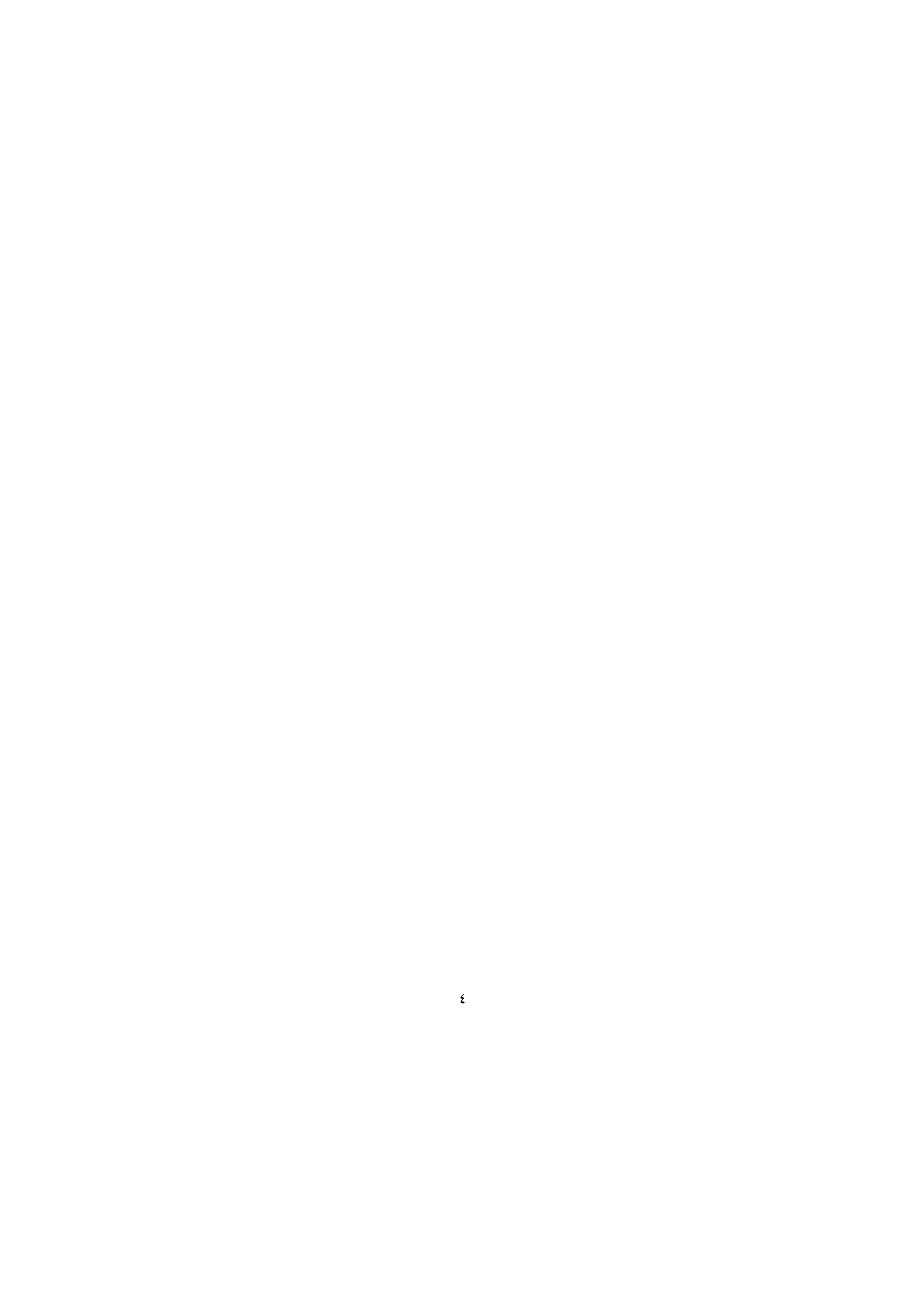
الترقيم الدولي: ٩ – ٥١٥ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١٠٣٩٠ / ٢٠٢٢

الهلال

مختارات من قصائده





طاغور الشاعر الإنسان

تحتفل البشرية كلها في هذه الأيام بالشاعر الفذ الذي سخر قلمه لخدمة الإنسان وتثبيت حقوقه– وهو عرفان خليق أن يشارك فيه بقلبه كل إنسان يؤمن بنفسه وبقيمته، ومن ثم فليس عجيبا أن تجتمع القلوب على إحياء ذكرى الشاعر الإنسان رابندرانات طاغور في كل بقاع الأرض، فلقد كان طاغور المنافح عن الإنسان في كل مكان بذوب قلبه وعصارة ذهنه، لا يعرف في دفاعه حدودا ولا سدودا، ولا يفرق في تقديره للإنسان بين جنس وجنس ولا بين لون ولون ولا بين دين ودين. كان الإنسان عنده هو الإنسان في أية لون ولون ولا بين دين ودين. كان الإنسان عنده هو الإنسان في أية صورة ركب وفي أي أرض نشئ.

كان يرى الإنسان قدسيا، لأنه الصورة التي تتجلى فيها قدرة القادر وعظمة الخالق على الأرض– كان نحب الإنسان– أي إنسان– ويقدس حقه ويجهد في سبيله. لم يفقد قط حتى في أحلك ساعات حياته إيمانه بالإنسان، ولم ين قط عن السعي

الدائب في سبيل تحقيق سعادة الإنسان.

تلكم المزية التي انفرد بها طاغور هي التي جعلت الأبصار كلها تتجه إليه في هذه الأيام لتنفض عن ذكراه غبار السنوات التي مرت ولتعيد إلى الأذهان عهده الذي كتبه في أخريات أيامه وتركه تراثا حيا خالدا للإنسانية لتتأمل فيه كلما حزبها الأمر واشتد بها الخطب واحولكت الظلمات. ظلمات المادة التي ارتكست فيها البشرية من أسف منذ سنوات طوال. لعل صيحة هذا الشاعر من وراء الأبدية تجد من يصيخ لها السمع ويفتح لها القلب عن إيمان بها فيعمل على أن يعيد للبشرية اتزانها وإيمانها بالقيم الإنسانية التي تحتفي بالمادة وتقدر الروح حق قدرها بلا إسراف في الأولى أو تطفيف في الثانية... لقد كتب طاغور في رسالته الأخيرة يقول:

"مهما يكن من شيء فإني لن أرتكب الخطيئة الخطيرة: خطيئة فقدان الإيمان بالإنسان، والرضوخ للهزيمة التي حاقت بنا في الوقت الحاضر على اعتبارها نهائية وحاسمة. بل سأظل أتطلع بأمل إلى تحول في مجرى التاريخ، بعد أن تنجاب هذه الغمة الجاثمة وتصفو السماء ثانية وتهدأ.

وربما بزغ الفجر الجديد من أفقنا هذا، أفق الشرق، حيث

تشرق الشمس. وعندئذ تهب روح الإنسان التي لم تهزم لتقوده من جديد إلى طريقه، طريق التقدم رغم كل العوائق، ليسترد تراثه الضائع"

هذه الرسالة: رسالة الإيمان بالإنسان وبروح الإنسان، والإيمان بأن البعث الجديد سيأتي من الشرق.. هي التي تغنى بها طاغور في شعره وموسيقاه، وهي التي تمثل لب فلسفته كلها– هذه النبوءة التي أرسلها هذا العبقري بعد أن كشف أسرار الوجود بنغماته التي استوحاها من قلب الطبيعة الذي نفذ إليه ببصره واستكنه حقائقه ببصيرته وإخلاصه..

قد بدأت تتحقق، وأخذ الشرق ينتفض انتفاضات أيقظت شعوبه من غفوة رانت عليها، فهبت تبدد الغيوم الحالكة التي خيمت في سمائها، وترسل قبسات من الضوء الكاشف تؤذن بانبلاج الفجر وبزوغ النور الهادي من قلب المشرق ليهدي البشرية ويقودها إلى الطريق السديد الذي بشر به طاغور... وإنه لتوفيق أي توفيق أن يتسم الشرق مكان الهداية إلى الحق والخير والجمال في هذه الأيام التي يكتمل فيها قرن على مولد شاعر الإنسان والحق والخير والجمال رابندرانات طاغور.

من أجل هذه المعاني ومن أجل هذه الدعوة إلى تقديس الإنسان ورعاية حقه يحتفل الشرق والغرب بذكري طاغور.. وطاغور نسيج وحده، فقد جمع إلى حكمة الشرق ثقافة الغرب، وإلى عراقة الأصل وشرف المحتد الإيمان العميق بالشعب وبالجماعة الإنسانية، وإلى زكانة القلب ورجاحة العقل ذلاقة اللسان وطيب المعشر، وإلى علة المكانة شرف الجهاد من أجل حرية بلاده واستقلالها.. وهو بهذا كله قد احتل مكانا فريدا في تاريخ الهند الحديث، بل وفي تاريخ الشرق كله، حتى استحق بحق أن ينعت بأنه أعظم فنان في العصر الحديث، وأن تخلع عليه جائزة نوبل في عام ١٩١٤.

لقد ولد طاغور في السابع من شهر مايو سنة١٨٦١ بمدينة كلكتا في أسرة موسرة ذائغة الصوت ذات تاريخ مجيد وجذور عميقة في عالم الثقافة ودنيا الأدب والسياسة. فكان جده راعيا للفنون والآداب في عصره، وكان أبوه من أعظم المصلحين الاجتماعيين، وكان من أسرته النابغون في الرسم والموسيقى والأدب.. هذا التراث الثقافي الوفير الغناء الذي أخذه عن آبائه وأجداده مضافا إلى مواهبة الفريدة قد خلق منه عبقريا فذا متعدد

الجوانب مكتمل النبوغ، وهيأ له التحليق في كل ميدان إلى القمة، فكانا بين الشعراء أفحلهم، وبين المسرحيين أنبغهم، وبين الفنانين أرقهم، وبين الموسيقيين أحلاهم ترجيعا، وبين المصلحين أشجعهم رأيا وأدقهم بصرا بالأمور، وبين المر بين أعلمهم، وبين الوطنيين أكثرهم جهادا وأعماقهم إيمانا حقوق وطنه، وبين لمتحدثين أكثرهم جاذبية وأشدهم إقناعا– لقد اكتملت في يده أداة في شتى صورها، فأرسل الأغاني تنساب حلوة النغم حافلة بالمعاني لتنفذ إلى القلوب وتستولى على الألباب– كان يتميز بفكر موسيقي وقلب موسيقي، فجاءت كلماته موسيقى عذبة تستمد أنغامها من غناء الطبيعة الساحرة في كل مظاهرها.

لقد ترك طاغور لمحبي الفن والأدب أكثر من ألف قصيدة وأكثر من ألفي بالإضافة إلى عديد القصص القصيرة والطويلة والمسرحيات والمقالات والبحوث التي عالجت موضوعات كثيرة ومختلفة، فهو في إنتاجه من حيث الكم لا يباريه شاعر آخر، ومن حيث الكيف لا يرقي إلى مستواه إلا قلة من العباقرة– على أن إنتاج طاغور لم يقف عند هذا الحد، فالشعر والأدب لم يستنفذا كل طاقاته الكامنة العارمة فعمد إلى الموسيقي يؤلف فيها ويفرغ

بعض طاقاته، وإلى الرسم ينفس عن بعض مكنون طاقاته الفنية، ومن عجب أنه بدأ يرسم وهو في السبعين من عمره، ومع ذلك أنتج أكثر من ثلاثة آلاف لوحة بعضها فريد في كماله الفني.

هذا التنوع الفذ اجتمع لشخص واحد، ولكنه اجتمع في طاغور كان يؤمن بالحياة ويحبها ولا يزهد فيها، كان يهب نفسه للكون باعتباره جزءا منه، فعرف الكون ةعرف الحياة، وتفتحت له أسرار الوجود بالإيمان والحب والعمل...

هذا الإنسان الفريد الذي كرس حياته للإنسان، واستلهم شعره من روح الإنسان، ومن رسالة خالق الكون للبشرية جمعاء، ومن إيمانه العميق بأن كلمة الله العليا ورسالته للبشرية لن تدرك حق الإدراك إلا حين تسود الحرية وتتحقق العدالة الاجتماعية، هذا الإنسان المؤمن بحق كل منا في الحرية والعدالة الاجتماعية من حقه علينا وعلى الإنسانية التي وجه ضراعاته إلى مالك الملك لينقذها من مسالك الضلال ويهديها إلى الصراط المستقيم، والتي أرسل أغانيه وأشعاره ليوقظها من سباتها وينهضها من كبوتها، من حقه علينا في ذكراه المئوية أن نعيد قراءة فيض خواطره، وأن نردد أشعاره وأغانيه، وأن نلقنها أبناءنا ونملأ بها جوانحهم، ليشبوا مؤمنين برسالته عاملين على تحقيقها.

ووفاء لهذا الحق نصدر هذه المختارات من مقطوعاته الشعرية وهي الهلال وشيترا وجيتنجالي والبستاني وجنى الثمار ومكتب البريد، فليس أحفظ للذكرى من إحياء فكر العظيم بمداومة قراءته حتى يستقر في النفس إيمانا يحفز للعمل من أجل الحرية والسلام ورعاية حقوق الإنسان: تلك المبادئ التي آمن بها طاغور ودعا إليها في:

* أيتها الأمم الفتية هي وأعلني صيحة الجهاد من أجل الحرية.

* وارفعي راية الإيمان الغلاب الذي لا يقهر.

* وأقيمي من حياتك معبرا يرأب صدع الأرض التي مزقتها الأحقاد والإحن.

* ثم سيرى للأمام...

مصطفى حبيب

البيت

سلكت وحدي الدرب الممتدة في الحقل، بينما كانت الشمس الآفلة تبدو كبخيل وهي تلملم آخر أشعتها الذهبية.

وكان النهار يغيب. شيئًا فشيئًا تحت جنح الدجى، وكانت الأرض الجرداء، تنبسط. إثر الحصاد، صامتة.

وتعالى إلى السماء، بغتة، صوت حاد، صوت طفل كان يدلج في الظلمة، خفيا، مخلفًا أثر أغنيته في هدأة المساء.

وكان بيته في القرية قائمًا هناك، في نهاية الأرض المبهمة. وراء حقل قصب السكر، مختبئًا بين أفياء أغصان الموز وسعف النخل الهندي الوانية وأشجار جوز الهند والجاك ذات الثمار الحانئة الخضرة[١].

وتوقفت هنيهة، في دربي المنعزلة، تحت ضوء النجوم، وأجلت بصري في الأرض المظلمة، تحضن بذراعيها شتيت البيوت العامرة بالأسرة والمهود، الآهلة بقلوب الأمهات ومصابيح المساء، الزاخرة

(١) الخضرة الحانئة: الشديدة الضاربة إلى سواد

بنفوس فتية تمتلئ أعطافها بفرح لا يعلم هو نفسه، مدى قيمته لهذا الكون.

على الشاطئ

على شاطئ الدنى غير المتناهية يجتمع أطفال.

السماء غير المتناهية تنفسح هادئة فوق رءوسهم، والموج الموار يصطخب، على شاطئ الدنى غير المتناهية يجتمع أطفال، هاتفين، راقصين.

إنهم يبنون بيوتهم من الرمل، ويلهون بالأصداف الفارغة، إنهم يصنعون من الأوراق الجافة قواربهم، ثم يدفعونها، باسمين، إلى المدى العميق. على شاطئ الدنى يفزع أطفال إلى اللعب.

إنهم لا يعرفون السباحة ولا يحذقون رمى الشباك، ويغوص صياد اللآلئ طلابا للؤلؤ وينصب التجار أشرعة سفنهم، بينا يجمع الأطفال الحصى ثم يبعثرونه، إنهم لا يبحثون عن الكنوز الخبيئة ولا يتقنون رمى الشباك.

ويشرئب البحر مرتفعًا، مطلقا ضحكة، وتتلألأ على الشاطئ بسمة شاحبة، وتغني الأمواج المنزعة بالموت للأطفال أغنيات خاوية المعنى، كأنها أن تهدهد طفلها في المهد، ويلعب البحر مع الأطفال، وتتلألأ على الشاطئ بسمة شاحبة.

على الشاطئ الدنى غير المتناهية يجتمع أطفال، وتهيم العاصفة في السماء الخالية من الدروب، لقد غرقت سفن في الماء، دون أن تخلف أثرًا، وترود المنية، ويلهو أطفال.

على أطراف الدنى غير المتناهية يقوم أعظم مكان لتجمع الأطفال.

النبع

– إن النعاس يرفرف على عيني الطفل الصغير– من يدرى من أين قد وافي؟

– بلى، لقد قيل إنه كان يسكن في قرية الجن، بين أفياء الغابة التي تضئ فيها، بنور رقيق، دوبيات القطرب[1] حيث يتفتح برعمان حييان، نشوة وطربًا، من هناك، أقبل النعاس ليلثم عيني الطفل الصغير.

– إن الابتسامة تتألق على شفتي الطفل الصغير– حين يغفو– من يدرى أنى قد ولدت؟

– بلى، لقد قيل إن شعاعًا فتيًا شاحبًا قد انسل من الهلال فمس أطراف غمامة واهية من غمام الخريف، هناك، في حلم الفجر المخضل بالندى، قد ولدت الابتسامة المتألقة على شفتي الطفل حين يغفو.

– إن النضرة العذبة الريا تترقرق على أطراف الطفل الصغير– من يدري أين كانت خبيئة من قبل أمدًا طويلا؟

---

(١) القطرب: دويبة تضئ في الليل كأنها شعلة.

– بلى، حين كانت الأم فتاة في عفرت الصبا، كانت ترقد، تمتد وتتسلل إلى قلبها، بغموض المحبة الرقيق الصامت، تلك النضرة العذبة الريا التي تترقرق، الآن، على أطراف الطفل الصغير.

درب الطفل

يتأتى للطفل أن يطير إلى السماء، لنوه إذا جاذبته هذه الرغبة ولكنه لا يفعل لأن لديه ما يحمله على ألا يغادرنا.

بلى، إنه ليحب أن يوسد رأسه صدر أمه، ولا يقوى البتة على رؤيتها تغيب عن ناظريه.

إن الطفل الصغير يحيط بجميع ضروب الكلام السديد، غير أن الذين يدركون معناها في الأرض قلائل.

فليس عبثًا ألا يرغب في الكلام أبدًا.

إن الشيء الوحيد الذي يتشوف إليه هو أن يتلقن كلمات أمه من شفتيها، ولهذا يتراءى بريئًا نقيًا.

إن في حوزة الطفل الصغير أكوامًا من الذهب واللآلئ، ومع ذلك فقد قدم كشحاذ إلى هذه الأرض.

إن لديه سببا يحفزه على أن يقدم في هذا التنكر.

بلى، إن هذا الشحاذ الصغير الأثير العريان يصطنع العوز الشديد ليتيسر له أن يطالب أمه بكنز حبها.

لقد كان الطفل الصغير حرًا من أي رباط في هذه الأرض التي يتسامى فوقها الهلال الصغير.

فليس عبثًا أن يتجلى عن حريته.

بلى، إنه ليعلم أن ثمة مكانًا زاخرًا بفرحة ثرة، يتسق في ركن صغير من قلب أمه وأنه لأشهي لديه من الحرية نفسها، أن تشده أمه وتضمه بين ذراعيها الحبيبتين.

إن الطفل لم يكن يعرف البكاء، كان يسكن أرض الغبطة الكاملة، ولكن لديه سببا يحمله على ذرف الدموع

بلى، رغم أنه يداعب بابتسامة من وجهه الحبيب أوتار قلب أمه، فإن نشيجه الرقيق المنبثق من آلامه الصغيرة، هو الذي ينسج بينه وبين أمه رباطًا مزدوجًا من الحب والرحمة.

الموكب الخفي

إيه يا طفلي، ترى من الذي لون ثوبك الصغير وغطى أطرافك الغضة بهذا النفاض[1] الصغير الأرجواني؟

لقد خرجت صباحًا إلى فناء الدار لتلعب فوقعت وتعثرت وأنت تركض، ترى من الذي صبغ ثوبك الصغير يا طفلي؟

---

(1) النفاض. إزار الصبي.

ما الذي يحملك على الضحك يا برعم حياتي الصغيرة؟

إن أمك تبتسم لك وهي واقفة في العتبة، إنها تصفق لك، فتهزج أساورها، وترقص أنت وفي يديك قضيب من شجر المامبو، كأنك راع صغير.

ما الذي يضحكك يا برعم حياتي الصغير؟

إيه أيها الشحاذ، ماذا تستجدي من أمك وذراعاك تتعلقان بعنقها؟

أيها القلب الجشع، هل تود أن أقطف لك الكون من الفضاء كما أقطف ثمرة؛ لأضعه في راحتك الصغيرة الموردة؟

إيه أيها الشحاذ، ماذا تستجدي؟

إن النسيم يحمل، في جذل، وسوسة خلخالك؟

إن الشمس تبتسم وهي ترامق زينتك.

إن السماء تحنو عليك، ساهرة، حين تغفو بين ذراعي أمك ويقدم الصباح، منسرق الخطى، إلى سريرك ليلثم عينيك.

ويحمل النسيم، في جذل، وسوسة خلخالك.

إن الجنية ملهمة الأحلام قادمة إليك، وهي ترفرف عبر الغروب، في السماء.

إن الذي يعزف موسيقاه للنجوم، هو قائم إلى جانب نافذتك، يحمل نايه.

وتقبل إليك الجنية ملهمة الأحلام. وهي ترفرف، عبر الغروب، في السماء.

سارقة النوم

من الذي خلس النوم من عيني الطفل الصغير؟ يجب أن أعلم.

لقد اتخذت أمه أدراجها إلى القرية لتستقي من الماء، مسندةً جرتها على خصرها.

وكان الوقت ظهرًا، وكان الأطفال قد استوفوا لعبهم، وكان البط، في الغيضة، صامتًا.

وكان الراعي الفتى قد أخلد إلى النوم متفيئًا ظل شجرة (البانيان).

وانتصب الكركي هادئًا وقورًا في البركة، قريبًا، من أجمة شجر المانجو.

في تلك الأثناء، قدمت سارقة النوم، وسلت الغفوة عن عيني الطفل الصغيرة ثم طارت.

ولما آبت الأم إلى البيت ألفت الطفل يحبو على أربع في أركان الغرفة.

ترى من الذي خلس النوم من عيني الطفل الصغير؟ ينبغي أن أعلم.

يجب أن أعثر على السارقة وأكبلها.

على أن أنظر في ذلك الغار المظلم، حيث ينساب جدول صغير بين الحصى والصخور الداكنة.

على أن أبحث بين الظل المهومة في حرج شجر (الباكولا) حيث يهدل الحمام في مجاثمه وحيث تهزج خرخيل الجن. في الليالي المتلاحمة النجوم.

وفي المساء سوف أن=تلمسها خلال الصمت الهامس المخيم في غابة المامبو حيث تريق اليراعات[٢] نورها، وسوف أسأل المخلوقات التي ألتقي بها:

هلا ذكرت لي أين تقيم سارقة النوم؟

من الذي خلس النوم من عيني الطفل الصغير؟ ينبغي أن أعلم.

---

(٢) اليراعة: ذبابة تضئ وهي تطير في الليل.

ترى أيجب أن ألقنها درسًا مفيدًا إن تيسر لي أن أمسك بها؟.

سوف أنقض على عشها لأرى أين تكدس ما اختلت من الكرى.

سوف أوثق جناحيها بقسوة وأضعها على ضفة النهر، ثم أدعها تلعب بقصة صيد بين فسائل النيلوفر.

وفي المساء، حين ينتهي البيع، ويفزع الأطفال إلى أحضان أمهاتهم فإن طيور المساء سوف تصم آذانهن وهي تردد ساخرة: ترى من الذي تختلسين كراه الآن؟

البداية

سأل طفل صغير أمه: من أين أتيت؟ وأين ظفرت بي؟

وأجابت أمه، يتجاذبها ضحك وبكاء، ضامةً طفلها إلى صدرها:

لقد كنت مختبئًا في قلبي، كنت رغبته يا حبيبي.

كنت بين دمي طفولتي، وفي كل صباح، حين كنت أسوى من الصلصال تمثال ربي، كنت أنت الذي أسويه ثم أنقضه.

كنت فوق المذبح، إلى جانب نصب بيتنا، وكنت أعبدك، حين أتجه إليها بعبادتي.

لقد عشت في جميع تعلاتي ووجدي، عشت في حياتي، في حياة أمي.

إن اتلروح الخالدة التي ترعي بيتنا قد غذتك، العمر كله، من ثديها.

وحين كان قلبي يفتح، في ريق صباي، أفوافه، فقد كنت تغلفني كالشذى الفاغم منه.

إن عذوبتك الناعمة كانت تترقرق في أطرافي الفتية، كأنها الألفة التي تسبق منبلج الفجر في السماء.

أنت يا حبيب السماء الأول. أنت يا توأم شعاع الصباح، لقد جرفك تيار حياة الكون حتى رسوت أخيرًا في قلبي.

وفيما كنت أتلطع إلى وجهك، والغموض يسربلني، أضحيت أنت، يا من تخص الجميع، ملكا لي.

وخشية أن أضيعك فقد جذبتك وشددتك إلى صدري، ترى أي سحر قد منح كنز الدنيا إلى ذراعي النحيلتين؟

دنيا الطفل

كم أود لو يتأتى لي أن أنتبذ ركنا هادئًا من قلب دنيا طفلي.

إنني أعلم أن لهذه الدنيا نجومًا تتحدث إليه وسماء تتطامن إلى وجهه لتسليه بقوس قزحها وغيومها العابثة.

إن الذين يزعمون أنهم بكم ويصطنعون العجز عن الحركة، يدلفون، خلسة. إلى نافذته، ليسردوا له القصص ويزجوا إليه أطباقًا حافلة بدمي براقة.

كم أود لو يتأتى لي أن أسير في الدرب التي يسلكها فكر الطفل الصغير وأضرب فيها بعيدًا، خلف جميع الحدود.

حيث يسعى الرسل. هائمين، دون غاية في ممالك الملوك التي لا تاريخ لها.

هناك، حيث يتخذ العقل من قوانينه دمية طائرة ثم يطلقها في الفضاء.

هناك حيث تحرر الحقيقة الفعل من أغلاله.

متى ولماذا؟

متى أحمل إليك دمى ملونه، أدرك يا طفلي لماذا يلعب هذا المزيج متى الألوان فوق الغيوم وعلى صفحة المساء، ولماذا وشيت الورود بالألوان– متى أحمل إليك دمة ملونة.

متى أنشدك لترقص، أعرف حقًا، لماذا تتسرب الموسيقا بين الأغصان، ولماذا تريق الأمواج أصواتها المؤتلفة في قلب الأرض الصاغية– متى أنشدك لترقص.

متى أقدم الأشياء العذبة إلى يديك الجشعتين، أدرك لماذا يكمن الشهد في كم الورود، ولماذا تمتلئ الثمار، خفية، بهذا الرحيق السائغ،– متى أقدم الأشياء العذبة إلى يديك الجشعتين.

متى ألثم محياك، لأجعلك تبتسم، يا طفلي الحبيب، أفهم أي فرحة تتسلل نت السماء، إلى رأد الضحى، وأي لذة يزجيها نسيم الصيف إلى جسدي– متى ألتم محياك لأحملك على الابتسام.

ذم

علام تترقرق الدموع في عينيك يا طفلي؟

ما أجفى طبعهم وهم لا يأتلون يؤنبونك على تافه الأشياء!

لقد لطخت بالمداد أناملك ووجههك وأنت تكتب– ألهذا السبب يدعونك بالقذر؟

بخ، بخ، أيجرؤون على أن يدعوا البدر الكامل بالقذر، لأن وجهه ملطخ بالمداد؟

إنهم يؤنبونك على تافه الأشياء، إنهم مستعدون لإيجاد هفوة لك من العدم.

لقد مزقت ثيابك وأنت تلعب، ألهذا السبب يدعونك بالمهمل؟

بخ، بخ، ترى بماذا يدعون صباحًا خريفيًا، يبتسم من خلال غيومه المهلهلة.؟

لا تول اهتمامك إلى قالتهم، يا طفلي، إنهم يعدون ثبتًا طويلًا ينتظم مساوئك.

كل إنسان يعلم مدى كلفك بالحلوى، ألهذا السبب يدعونك بالنهم؟

بخ، بخ، بماذا يدعوننا إذن، نحن الذين نحبك؟

الحكم

قل عنه ما يحلو لك، فأنا أعرف عثرات طفلي.

أنا أحبه لا لأنه طيب السريرة، بل لأنه طفلي الصغير.

كيف تستطيع أن تعلم كم يتسنى له أن يكون أثيرًا لدى، حين تحاول أن توازن بين حسناته وسيئاته.

وحين ألجأ إلى معاقبته، فإنه يضحى، إذ ذاك، أكبر جزء من كياني.

وحين أجعل دموعه تنهمر فإن قلبي يبكي معه.

لي الحق وحدي أن أؤنبه وأعاقبه، فلمن يحب، الحق، وحده، أن يعاقب.

الدمى

أيها الطفل، ياهناءتك وأنت تقتعد التراب، لا هيًا بغصن قصيف، طوال النهار.

إنني لأبتسم وأنا أرى إليك تلهو بهذا الغصن القصيف الصغير.

إنني مشغول بإعداد حسابي، فأظل ساعة، معنيًا يجمع الأرقام.

لعلك أن تسارقني النظر، مفكرًا: أي غباوة في إفساد صباحك بهذا الحساب!

أيها الطفل، لقد فقدت فن الاهتمام بالعصى والطين المعجون.

إنني أبحث عن دمى ثمينة، فأنا أحتجن أكوامًا من الذهب والفضة.

إنك تخلق من أي شيء تجده دمى سارة أما أنا فإنني أبدد قواي ووقتي بحثًا عن الأشياء التي لن أستطيع الفوز بها.

إنني أبذل جهدي في عبور بحر اللذات بقاربي الهزيل الصغير وأنسى بينما أقوم بذلك، أنني ألهو بدميتي.

الفلكي

لم أسأل إلا هذا السؤال: حين يتسلل البدر المدور مساء بين أغصان شجر (الكادام) ترى من يقدر أن يمسك به؟

ولكن (دادا)[1] سخر مني وقال: لم أر، العمر كل، غبيًا مثلك، إن البدر جد بعيد عنا فكيف يمكن الإمساك به؟

وقلت: يا لك من مجنون يا (دادا) أتقدر أن تدعى بأن أمنا بعيدة عنا حين تطل من النافذة وتبتسم لنا ونحن نلعب في فناء الدار؟

وأجاب (دادا): يا لك من طفل ساذج! ولكن كيف تستطيع أن تظفر بشبكة تسع البدر كله؟

وقلت: من المؤكد أنك تقدر أن تطوله بيديك.

وتهاتف (دادا) قائلا: لم أر: العمر كله، غبيًا مثلك، لعلك أن ترى إلى البدر حين يقترب كم هو كبير.

---

(١) داد: الأخ الأكبر في اللغة الهندية

وقلت: أي هراء يلقنونه في مدرستك! أيبدو وجه أمنا كبيرًا حين تنحني لتقبلنا؟

وردد (دادا) قائلا: يا لك من طفل ساذج!

غيوم وأمواج

– أماه، أولئك الذين يعيشون بين الغيوم يهتفون لي: إننا نلعب منذ يقظتنا حتى ينقضي النهار.

إننا نلعب مع الفجر الذهبي ونلهو مع القمر الفضي.

وقلت: كيف أستطيع أن أصل إليكم؟

فأجابوا: تعال إلى طرف الأرض، وارفع يديك نحو السماء، فلسوف تحملك الغيوم

وقلت: إن أمي تنتظرني في البيت. فكيف أقوى على مغادرتها والمجيء إليكم؟

حينذاك ابتسموا ومضوا طائرين.

ولكنني أعرف لعبة أمتع من هذه اللعبة يا أمي: سوف أمثل أنا دور السحاب وتمثلين أنت دور القمر، سوف ألفك بيدي الثنتين، وسوف يمسي سقف بيتنا السماء الزرقاء.

أولئك الذين يعيشون بين الأمواج يهتفون لي: إننا نغني من الصباح حتى المساء ونهيم في كل مراد. لا ندري أنى نمر.

وسألت: ولكن كيف السبيل إلى الاجتماع بكم؟

فأجابوا: تعال إلى عذار الشاطئ، وقف ثمة وعيناك مغمضتان، فلسوف تحملك الأمواج إلينا.

وقلت، إن أمى تنتظرني، مساء، في البيت، فكيف أقوى على مغادرتها والمجئ إليكم؟

حينذاك ابتسموا ورقصوا ثم مضوا.

ولكني أعرف لعبة أمتع من هذه اللعبة يا أمي: سوف أمثل أنا دور الأمواج وتمثلين أنت دور للشاطئ البعيد.

سوف أتقلب ثم أتقلب حتى أمس ركبتك. مرسلا ضحكتي.

ولن يعلم إنسان، في الأرض، مكاننا، أبدًا.

زهرة الشامبا

لو أنني انقلبت، طلبًا للدعابة، وحلت إلى زهرة (شامبا) وصعدت عاليًا فوق من هذه الشجرة، وجعل النسيم يهزني وأنا أضحك وأرقص فوق تفرتها[1] الغضة، تراك تتعرفين على يا أمي؟

لعلك أن تناديني: يا طفلي الصفير أين أنت؟ حينذاك سوف أضحك وحدي وألزم الهدوء.

سوف أفتح، خلسة، أفوافي وأراقبك وأنت منصرفة إلى عملك وحين تمرين، في ظل شجرة (الشامبا)، إثر استحمامك، وتتخذين سمتك، وشعرك المبتل مرسل على كتفيك، نحو القاعة الصغيرة التي تلهجين فيها بصلواتك، فلعلك أن تتنسمي شذى الزهرة، ولكنك أن تعلمي أنه يضوع منى.

وحين تتخذين مجلسك إلى جانب النافذة، بعد طعام الغذاء، لتقرئي في كتاب (الرامايانا)، وفيء الشجرة يتنقل بين شعرك وركبتك فلسوف أريق ظلي الصغير فوق صفحة كتابك حيث تقرئين، تراك تحزرين أنه ظل طفلك الصغير؟

---

(1) التفرة: أول ما يبدو من ورق الشجر.

وحين تذهبين، مساء، إلى مربض البقر، يودك تحمل السراج المضئ، فلسوف أتهاوي،/ فجأة على الأرض، وأحول من جديد إلى طفلك الصغير، وأستعطفك لتروى لي حكاية.

– أين كنت يا طفلي العاصي؟

– لن أخبرك يا أمي.

لعل هذا ما قد يردده كلانا حينئذ.

أرض الجن

إذا علم الناس أين يقوم قصر الملك، فسرعان ما يغيب في الفضاء.

إن جدر أنه مشيدة بالفضة وسقفه مبنى بالذهب البراق.

تسكن الملكة قصرًا ذا سبعة أفنية، وتزهى بجوهرة، ثمنها ثروة سبع ممالك.

ولكن دعيني أهمس في أذنك يا أمي وأسألك: أين قصر ملكي؟

إنه في ركن من سطح بيتنا، هناك، حيث يقبع أصيص نبات (التولسى).

الأميرة ترقد، مضطجعة، على الشاطئ البعيد، شاطئ البحور السبعة، الممتنعة العبور.

ليس ثمة إنسان، في الدنيا، سواي، يتأتى له أن يجدها.

تزدان ذراعاها بالأساور وتتعلق بأذنيها لؤلؤتان، وينحدر فروعها، متموجًا، حتى يلامس الأرض.

سوف تستيقظ حين أمها بمخصرتي الحرية، ولسوف تتهاوى جواهر من شفتيها، حين تبتسم.

ولكن دعيني أهمس في أذنك يا أمي، إنها هناك في ركن من سطح بيتنا حيث يجثم أصيص نبات (التولسي)

حين يأزف الوقت الذي تردين فيه النهر لتغتسلي، فأصعدي إلى السطح.

سوف تجدينني ألزم ركنًا منه، هناك، حيث تتلاقى ظلال الجدران.

لقد أتيح للهرة الصغيرة وحدها، أن ترافقني، لأنها تعلم أين يسكن الحلاق، في الحكاية.

ولكن دعيني أهمس في إذنك يا أمي لأذكر لك أين يسكن الحلاق في الحكاية.

إنه مقيم، في ركن السطح، حيث يجثم أصيص نبات (التولسى).

أرض المنفى

أماه، لقد أربد النور في السماء، ولا أعلم ما هو الوقت.

لقد برمت بلعبي، ولهذا فقد قصدتك. اليوم هو السبت، يوم عطلتنا.

ذري عملك يا أمي، تعالي أجلسي هنا، قرب النافذة، وقولي لي أين تمتد صحراء (التيابنتار) التي ذكرتها الخرافة.

إن ظل المطر قد غطى كل منفسح السماء

البرق الضاري يمزق بمخالبه الفضاء.

وحين تهدر الغيوم ويهزم الرعد، فإنني أحب أن أشعر بوجيب قلبي الخائف وأن أتعلق بك.

وحين يسح المطر الغزير طوال ساعات، فوق أوراق المامبو، وتهتز نوافذنا وتضج، إذا جاذبتها الريح، فإنني أوثر أن أمكث في الغرفة.

ملتزمًا جانبك، وأنت تتحدثين لي عن صحراء (التيابنتار) التي ذكرتها الخرافة.

ترى أين تمتد يا أمي؟ على شاطئ أي بحر؟ في سفح أي ربوة؟ في مملكة أي ملك. تراها تنبسط؟

– هناك حيث لا تلفي سياجا يفصل بين الحقول ولا دربًا تنساب فيها، دربًا تقود الفلاحين إلى قريتهم، مساء أو تقود المرأة حمالة الحب اليابس، من الغابة إلى السوق. هناك حيث تمتد الرمال، ينجم في مواضع منها عشب أصفر وتنتصب شجرة واحدة عشش فيها عصفوران حكيمان عجوزان، أجل هناك، تنبسط صحراء (التيابنتار).

بميسوري أن أتخيل كيف يمتطى ابن الملك، في يوم غائم كهذا اليوم، صهوة جواده، ليجوز الصحراء وحده، بحثًا عن الأميرة المضطجعة الجبيسة في قصر المارد الجبار، القائم عبر هذا البحر المجهول.

وحين يحبو ضباب المطر إلى الفضاء القصي، وينقض البرق كأنه وخزة الألم المداهم، تراه يفكر بأمه المسكينة التي هجرها الملك. بأمه التي تنظف الحظيرة وهي تكفكف دمعها، بيننا يخب به جواده في صحراء (التيابنتار) التي ذكرتها الخرافة.

انظري يا أمي، يكاد الظلام أن ينتشر، قل أن ينقضي

النهار، هناك في درب القرية لا يسعى أي مسافر.

لقد عاد الراعي الفتي من المرعي مبكرًا، وغادر الرجال حقولهم ليجلسوا فوق شباكهم، تحت طنوف أكواخهم الصغيرة، وهم يحيلون أبصارهم في السحب المتوعدة.

أماه، لقد تركت كتبي على الرف، حنانيك، لا تسأليني، اليوم، إعداد دروسي.

حين أضحى كبيرًا كأبي فلسوف أتعلم كل ما يجدب أن أعرف.

ولكن اذكري لي، اليوم فقط، أين تمتد صحراء (التيابنتار)

اليوم المطير

تجمعت غيوم مكفهرة، بخفة، فوق طرف الغابة المظلم.

إيه يا طفلي إياك أن تخرج.

إن أشجار النخل المصطفة على شاطئ البحيرة، تتحدى بذراها السماء العابسة وتفيء الغربان ذات الأجنحة المتسخة إلى الصمت فوق أغصان الحناء. ويخيم. على الضفة الشرقية. ظلام عميق.

إن بقرتنا المربوطة بالسياج تخور خوارًا عاليًا.

إيه يا طفلي ابق هنا، ريثما أقودها إلى الحظيرة.

ويتدافع الرجال مزدحمين إلى الحقل المغمور بالماء. بحثًا عن الأسماك المنزلقة من البرك الطافية. ويجري الماء المجتمع من المطر ويتفطر إلى سواق منسربة في حدود ضيقة فكأنه طفل ضاحك قد فصل عن أمه وعدا أمامها مازحًا فعابثًا.

أصغ إنني أسمع صوتًا يهتف بملاح المعبر[١].

---

(١) المعبر. المركب الذي يعبر به.

إيه يا طفلي لقد غلبت العتمة، ولم يعد العبور بالمركب متاحًا.

وبدت السماء تركض[٢] المطر الجامح المجنون السريع، وتراءي النهر الهادر نافد الصبر، وصدرت النساء، عجالي. من نهر الجانح. بجرارهن الملأي.

ينبغي أن تعد سرج المساء.

إيه أيها الطفل. إياك أن تخرج.

إن الطريق المفضية إلى السوق مقفرة والدرب المحاذية للنهر زلقة، والريح تزمجر هائجة بين أغصان المامبو كأنها طريدة ضارية قد وقعت في شبكة.

---

(٢) ركض الفارس الجواد: استحثه للعدو.

زوارق ورقية

يوما بعد يوم، أدفع بزوارقي الورقية، واحدًا إثر واحد، في الجدول الجاري.

لقد كتبت عليها، بأحرف سوداء كبيرة، اسمي واسم القرية التي أسكن فيها.

آملا أن يلقاها إنسان في أرض غريبة ما، ويعرف منها من أنا.

لقد أوسقت زوارقي الصغيرة بورود (الشيولي) المقطوفة من حديقتنا، آملا أن يتاح لهذه الورود، ورود الفجر، بأن تنقل غضة ريا إلى أرض الليل.

ودفعت زوارقي وشخصت ببصري إلى السماء، فشمت نتفا من الغيوم وتنصب أشرعتها البيضاء الحدباء.

لا أدري أي رفيق لي عابث، في السماء، يحدر إلى هذه الغيوم نسيمًا، لتجري مع زوارقي.

وحين يجن الليل، فأنني أدفن رأسي بين ذراعي، وأحلم بأن زوارقي تمخر، بعيدًا، في موهن من الليل تحت أشعة النجوم، تواكبها جنيات النوم، متخذة حمولتها سلالا ملأى بالأحلام.

الملاح

لقد رسا قارب الملاح (مادهو) في مرفأ (راجكوني).

وكان محملا بالقنب، دون أي طائل، وظل، ثمة، راسيًا عاطلا منذ أمد بعيد.

كم أود لو أنه يعيرني قاربه، فإنني أزوده بمائة مجداف، وأنصب له خمس أشرعة أو ستًا بل سبعًا.

ولن أقوده إلى أسواق غبية.

سوف أمخر به الأبحر السبعة والنهور الثلاثة عشر المنسابة في أرض الجن.

أماه لا تنتبذي ركنًا، لتبكيني في غيابي.

فلن أذهب مثل (رامشاندرا) إلى الغابة، لأعود منها بعد أربع عشرة سنة.

سوف آخذ بمدرجة الأمير في الحكاية، وأوسق قاربي بكل ما يطيب لي.

سوف أصطحب صديقي (آشو) وسوف نمخر، والغبطة ملء أعطافنا، الأبحر السبعة والنهور الثلاثة عشر المنسابة في أرض الجن.

سوف ننصب أشرعتنا، حين يسفر الفجر.

وفي الظهر، حين يأزف وقت استحمامك في البركة، نكون قد شارفنا أرض الملك العجيب.

سوف نجوز مخاضة (نيربوني) وندع صحراء (التيبانتار) خلفنا.

وحين نعود، فلسوف أجد الظلمة تكاد تنتشر، ولسوف أحدثك عن كل ما شاهدت.

سوف أمخر الأبحر السبعة والنهور الثلاثة عشر المنسابة في أرض الجن.

الضفة الأخرى

كم أود أن أذهب إلى هناك، إلى الضفة الأخرى من النهر.

حيث نيطت تلك القوارب بجذوع شجر المامبو، في صف واحد.

هناك، يعبر الرجال بقواربهم النهر، صباحًا، حاملين على

عواتقهم محاريثهم لحرث حقولهم النائية.

هناك، يدفع الرعاة قطعانهم الخوارة، لتسبح إلى المرعى المجاور.

من هناك يؤوبون جميعًا إلى بيوتهم مساء، تاركين الجزيرة الصغيرة الكاسية بالعشب تعوى فيها بنات آوى.

أماه هلا سمحت لي أن أصبح، حين أكبر، ملاح المعبر؟

يقال إن خلف هذه الضفة ؟؟؟، تتوارى برك عجيبة.

إلى هناك تفزع أسراب البط الوحشي، إثر موسم الأمطار.

هناك تربو فسائل القصب الكثيفة، على عذار البرك، حيث تضع الطيور المائية بيضها.

هناك يخلف الدجاج ذو الذيل المتخلج، آثار براثنه الصغيرة، فوق الوحل النظيف.

هناك تدعو، في المساء، الأعشاب السوقاء[1] المتماوجة المتوجهة بالزهور البيضاء أشعة القمر لتسبح فوقها.

---

(1) السوقاء، الطويلة الساق

أماه، هلا سمحت لي، أن أصبح، حين أكبر، ملاح المعبر؟

سوف أتنقل، من ضفة إلى ضفة، وسوف يرامقني، بإعجاب، صبيان القرية وبناتها، وهم يغتسلون.

وحين ينقضي النهار، وتجثم الظلال، تحت الأشجار. فلسوف أقدم مع الغروب.

ولن أتركك أبدًا. وأقصد المدينة لأكدح مثل أبي.

أماه، هلا سمحت لي، أن أصبح، حين أكبر، ملاح المعبر؟

مدرسة الزهور

حين تهزم رعود الغيوم العاصفة في السماء، وتهطل أمطار حزيران.

فإن الريح الشرقية الرطبة، بنسم عبر أشجار الخلئج، وتنفخ في مزمارها بين أغصان المامبو.

وحينئذ تتفتح أكمام الزهور، فجأة، ولا يدري أحد، من أي مكان قد وافت وتشرع في رقصها، فرحة فوق العشب

أماه، إنني أعتقد، أن للزهور مدرسة، في جوف الأرض.

إنها تتلقن دروسها ضمن أبواب مغلقة، وإن رغبت في الظهور قبل الأوان، فإن معلمها يلزمها أن تقف في ركن ما.

وحين يقبل موسم الأمطار، فإنها تحظى بعطلتها.

إن الأغصان تصطفق في الغابة، وترتعش الأوراق على هبة الريح النكباء وتصفق السحب المرعدة بأيديها الشبيهة بأيدي المردة.

وتنطلق الزهور الطفلة، بثيابها، الصبيغة بالحمرة والصفرة والبياض.

ألم تلحظي كيف تتمنى أن تصل إلى هناك.

ألا تعلمين ما الذي يحفزها على العجلة.

بلى، أستطيع أن أحزر لمن ترفع أذرعتها: إن لها مثلى أمًا.

التاجر

تصوري يا أمي، أنك ستلزمين البيت، وأنني بسبيل الرحيل إلى بلاد مجهولة.

وتصوري أن زورقي معد في مرساه، موسق بالحمولة.

والآن، فكري جيدًا يا أمي، قبل أن تذكري لي ماذا تودين أن أجلبه لك، في عودتي.

أتريدين ذهبًا، أكوامًا من الذهب؟

إن هناك، على ضفاف الجداول الذهبية، حقولا حافلة بالحصاد الذهبي.

وفي ظلال ممر الغابة تتساقط زهور (الشامبا) الذهبية على الأرض.

سوف أجمعها كلها لك في مئات السلال.

أماه. أتريدين لآلئ كبيرة تماثل قطرات غيث الخريف؟

سوف أبحر إلى شاطئ جزيرة اللؤلؤ.

هناك ترتعش لآلئ براقة، في سدفة الفجر، فوق زهور المرج،

وتنهمر لآلئ، قطرةً قطرةً، على العشب، ويتناثر زبد أمواج البحر الهائج، لآلئ، فوق رمل الشاطئ.

سوف أجلب لأخي زوجًا من الجياد المجنحة، ليطير بين الغيوم.

سوف أجلب لأبي قلمًا سحريًا، يدرج وحده في الكتابة، دون علم صاحبه.

لك أنت يا أمي، سوف أجلب الجوهرة والسفط اللذين بذل سبعة ملوك ممالكهم ثمنًا لهما.

ود

لو أنني لم أكن طفلك، يا‌أمي الحبيبة بل كنت جروًا صغيرًا.

تراك تنهيني قائلة: مه. إن حاولت أن آكل من ثحنك!؟

تراك تزجرينني، قائلة: إذهب، أيها الجرو الشرير.

على رسلك إذن يا أمي، على رسلك، لن آتى إليك حين تنادينني، ولن أدعك تطعمينني، بعد الآن.

لو أنني لم أكن طفلك يا أمي الحبيبة بل كنت ببغاء صغيرة، تراك تقيدينني، خشية أن أطير؟

تراك تتوعدينني بإصبعك قائلة: أيها الطير القبيح الذي لا يني ينقر قيده، في الليل والنهار.

على رسلك إذن، يا أمي على رسلك، سوف أعدو هاربًا إلى الغابة، ولن أدعك تضمينني بذراعيك بعد الآن.

نزعة

حين يدق الطبل، في الصباح، عشرات مرات، وأتخذ سمتي إلى المدرسة.

فإنني ألتقى، كل يوم، بالبائع ينادى: أساور، أساور زجاجية.

لا شيء يحمله على حث خطاه، ليس ثمة درب عليه أن يسلكها أو مكان عليه أن يقصده أو زمان عليه أن يؤوب فيه إلى البيت.

كم أود أن أصبح بائعًا. أسلخ سحابة يومي. وأنا أجوب الدروب مناديًا: أساور زجاجية.

وحين أعود من المدرسة، في الساعة الرابعة، عصرا.

فإنني أقدر أن أرى من خلف حاجز هذه الدار إلى البستاني وهو يحفر الأرض.

إنه يعمل بمسحاته ما يحلو له ويعفر ثيابه بالتراب، ليس ثم إنسان يؤنبه إن لوحته الشمس أو بللته الأمطار.

كم أود أن أصبح بستانيًا، وأنصرف إلى الحفر دون أن يثنيني أي إنسان.

وحين تنتشر العتمة، في المساء، وتبعث بي أمي إلى السرير.

فإنني أستطيع أن أرى من نافذتي المفتوحة إلى العساس[1]، غاديًا رائحًا.

الطريق مقفرة مظلمة ومصباح الشارع قائم كأنه عملاق ذو عين حمراء واحدة في هامته.

ويؤرجح العساس فانوسه، ويمشي وظله يسعى إلى جانبه ولا يفئ إلى سريره، العمر كله، مرة واحدة.

كم أود أن أضحى عسسًا، أجوب الدروب، طوال الليالي، وأطارد بسراجي الظلال.

---

(١) العساس: حارس الليل.

المتعالي

أماه إن طفلتك لحمقاء. إنها تبدو هرأة بعبثها الوليد، إنها لا تستبين الفرق بين ضوء الشارع وضوء النجوم.

وحين نلهو بلعبة أكل الحصى فإنها تحسبه طعامًا سائغًا وتحاول أن تضعه في فمها.

وحين أفتح أمامها كتابًا، وأطلب إليها أن تتعلم: أ، ب، ج، فإنها تمزق بيديها الصفحات، وتسخر ضاحكة، دون سبب، هكذا تريد طفلتك الصغيرة أن تتعلم.

وحين أهز رأسي، غضبًا وأؤنبها قائلا: أيتها الشريرة. فإنها تضحك وتحسب ذلك هزلا.

كلنا يعلم أن أبي غائب، بيد أنني حين أنادى وأنا ألعب: أبتاه، فإنها تجيل بصرها، عجبًا، وتظن أن أباها قريب.

حين يقدم الغسال بحميره لينقل عليها الثياب، وأتخذ من حميره طلابًا لي، لاثم أفسر لأختي أنني معلم مدرسة، فإنها تزعق، دون سبب وتناديني: دادا[1].

---

(١) دادا: الأخ الأكبر في اللغة الهندية

إن طفلتك الصغيرة تريد أن تمسك بالقمر، إنها لمضحكة، إنها تدعو: غانوش بدلا من غانيش[2].

أماه، إن طفلتك لحمقاء، إن في أخلاقها طفولة إلى حد غير معقول.

---

(٢) غانيش. اسم متداول في الهند

الرجل الصغير

أنا صغير لأنني طفل، سوف أصبح كبيرًا حين أصير في عمر أبي.

سوف يقول لي معلمي: لقد تأخرت، أحضر لوحدك وكتبك.

سوف أجيب: ألا تعلم أنني كبير مثل أبي؟ ولست بمحتاج إلى مزيد من الدروس.

سوف يعجب معلمي ويقول: يستطيع أن يدع كتبه، إن أراد فقد أضحى الآن رجلا.

سوف أرتدى ثيابي وحدي، وسوف أتخذ أدراجي نحو المعرض حيث تزدحم جموع غفيرة.

سوف يخف عمي إلى ويقول لي: أخشى أن تضل طريقك يا بني دعنى أحملك.

سوف أجيب: ألا ترى يا عمي، أنني كبير مثل أبي؟ أريد أن أذهب إلى المعرض وحدي.

سوف يقول عمى: أجل، إنه يقدر أن يذهب أني يشاء، فقد أضحى الآن رجلا.

سوف تقبل أمي من الحمام لتجدني أمنح حاضتيى دراهم، فأنا أعرف كيف أفتح الصندوق بمفتاحي.

سوف تصرخ أمي وتردد: ماذا تفعل أيها الطفل العابث؟

سوف أقول له: أماه، ألا تعلمين أنني كبير مثل أبي، وأن على أن أهب حاضتى فضة.

سوف تردد أمي: يستطيع أن يمنح من يود دراهم، فقد أضحى رجلا.

وفي عطلة أكتوبر، سوف يعود أبي إلى البيت، حاملا إلى من المدينة، أحذية صغيرة ونفضًا حريرية[1] ظانًا أنني لا أزال طفلا صغيرًا.

سوف أقول له: أعطها إلى دادا، إذ أنني رجل مثلك.

سوف يفكر أبي ويقول: بميسوره أن يشترى ثيابه كما يرغب، فقد أضحى رجلا.

(1) النقاض وجمعه نفض: إزار الطفل الصغير

الساعة الثانية عشرة

أماه، إنني أتشوف إلى أن أدع دروسي جانبًا، لقد عكفت على كتبي منذ طلوع الصباح.

تقولين إن الساعة لا تتجاوز الثانية عشرة، ولكن، افترضي أنه لا يوجد أي تأخر، أفلا تستطيعين أن تتصوري أن العصر قد حل، بينا تشير الساعة إلى الثانية عشرة.

أستطيع أن أتخيل في يسر أن الشمس قد لامست طرف حقل الأرز، وأن الصيادة العجوز تقطف الأعشاب، لتعدها عشاء لها، إلى جانب البركة.

إنني أقدر أن أغمض جفني لأتمثل الظلال تزداد قتامة تحت أشجار (المادار)، ويتراءى ماء البركة أسود براقًا.

ما دامت الساعة قد تشير في الليل إلى الثانية عشرة فلماذا لا يمكن لليل أن يحل حين تشير الساعة في الظهيرة إلى الثانية عشرة؟

حرقة الكتاب

تقولين إن أبي يؤلف شتيت الكتب، بيد أنني لا أفقه شيئا مما يخط.

لقد أنفق السهرة كلها، وهو يقرأ لك، ترى أتدركين في الحق، ما يعنيه؟

أي حكايات طريفة تستطيعين أنت أن تقصيها علينا يا أمي! وإنني لأتساءل: عجبًا، لماذا لا يكتب أبي مثلها؟ ترى ألم تقص عليه أمه حكايات المردة والجن والأميرات؟

تراه قد نسيها كلها؟

وفي الغالب، حين يتلكأ في الذهاب إلى الحمام، فإن عليك أن تمضي وتناديه مائة مرة؟

إنك تنتظرينه وتجهدين في حفظ صحون الطعام ساخنة، من أجله، بينا هو لا يني يكتب ناسيًا كل شيء.

إن أبي يلهو دومًا بتأليف الكتب.

وحين يتفق لي أن أذهب لألهو في غرفته، فإنك تبادرين لي البحث عنى وتدعينني بالطفل العابث.

وحين تتناهى منى أقل ضجة، فإنك تخاطبيني: ألا ترى إلى أبيك وهو يشتغل؟

أي لذة يستمرئها في أن يكتب ويكتب ويكتب؟

وحين أمسك بقلمه أو بريشته، وأخط في دفتره مثلما يفعل:

أ، ب، ج، د، هـ، و، ز، فعلام تسخطين على يا أمي.

إنك لا تنبسين ببنت شفة حين يكتب أبي.

وحين يبدد أبي أكوامًا من الورق، فلا تكترثين بذلك أبدًا.

ولكن حين أمسك بوريقة واحدة لأصنع منها قاربًا، فإنك تقولين: يا لك من طفل مضايق!

ما رأيك إذن بأبي الذي يخربش في صحائف وصحائف ويملأها بخطوط سوداء في كلا وجهيها؟

الساعي الشرير

علام تقتعدين الأرض، هادئة صامتة، قولي لي، يا أمي الحبيبة.

إن المطر يهمى من النافذة المفتوحة ويبلل جسمك كله، وأنت غير آبهة لذلك.

ألا تسمعين دقات الطبل تدوي أربع مرات، لقد أزف أو أن عودة أخي من المدرسة إلى البيت.

ماذا دهاك؟ لماذا تترائين كئيبة؟

ألم تتلقى، اليوم، رسالة من أبي؟

لقد رأيت الساعي يحمل الرسائل في قمطره[1]، ليوزعها على معظم أهالي البلد.

بيد أنه يحتفظ برسائل أبي، ليقرأها وحده، إني لموقن بأن الساعي رجل شرير.

ولكن، لا تحزني لذلك، يا أمي الحبيبة.

---

(1) القمطر. ما تصان فيه الرسائل والكتب

ففي غد تقام سوق القرية المجاورة، اطلبي إلى الخادم أن تشتري لك أقلامًا وورقًا.

سأكتب أنا رسائل أبي كلها، ولن تجدي فيها خطأ واحدًا.

سأخط، ابتداء من حرف الألف إلى حرف الكاف؟

ولكن علام تبتسمين يا أمي؟

ألا تعتقدين أن في ميسوري أن أكتب مثل أبي، كتابة جميلة؟

غير أنني سأسطر الورق، بعناية، سأخط الحروف كلها كبيرة رائعة.

وحين أنتهى من كتابه رسالتي، أفتظنين أنني سأكون ساذجا مثل أبي فأرمى بالرسالة في حقيبة هذا الساعي.

سأحملها أنا إليك، دون انتظار، سأعينك على قراءة خطى، حرفًا فحرفًا.

إنني أعلم أن هذا الساعي لا يود أن يحمل إليك الرسائل الرقيقة.

البطل

أماه، لنتصور أننا ماضيان في الرحيلوأننا نضرب في أرض عجيبة محفوفة بالمخاطر.

أنك تسعين في حداجتك[١] وأنا على صهوة كميت سخب إلى جانبك.

الشمس تجنح إلى المغيب.. إنه المساء! وتمتد مفازة (جوار ديغي) جهمة غبراء، في مسرح نظرنا، وتنفسح البيداء قفراء جرداء.

وتفكرين واجفة، وتتساءلين: لا أدري أين وصلنا، وأقول لك: أماه لا تخافي.

المرج مكسو بالأعشاب الشائكة، وتخترقها درب ضيقة تهشمت أعشابها.

وفي المدى الوسيع، لا يبين أي قطيع، فقد عادت القطعان إلى حضائرها في القرى.

---

(١) الحداجة: هودج تركب فيه المرأة.

الحلكة تنتشر، والظلمة تغزو الأرض والسماء، ونحن لا ندري أين ندلج.

وتنادينني، فجأة، وتسألينني بصوت خفيض: ما هذا النور الذي يشع قرب الشاطئ؟

في تلك اللحظة يدوي زئير مخيف، وتهرول أشباح نحونا.

وتتمسكين بحداجتك وترددين أسماء الله، في دعائك.

ويفزع الجمالون، إلى حجمة شائكة، وقد ارتعدت فرائصهم، فلاقًا ورعبًا.

وأصرخ: احذروا أيها الأشرار، إن خطوة واحدة تنتهي بكم إلى الردي.

ويتعالى من جديد زئيرهم المخيف، ويتقدمون إلى الأمام.

وتشدين على يدي وتقولين: بحق السماء يا طفلي الحبيب ابتعد عنهم.

وأقول: سترين ما أنا فاعل بهم.

وأهمز جوادي وأركضه في تقريب[٢] هائج، وسيفي وترسي يقعقعان معًا.

وتدور معركة رهيبة يا أمي، قد تبعث في أطرافك الرعدة، لو يتسنى لك أن تشاهديها من حداجتك.

ويلوذ أكثرهم بالفرار، ويضحي بعضهم قطعًا مزقًا.

وأعلم أنك تفكرين وأنت جالسة منفردة، بأن طفلك قد لقي، ولابد، مصرعه، إذ ذاك!

ولكنني أقدم إليك، مخضبًا بالدماء، وأقول لك. أماه لقد انتهت المعركة.

وتهبطين من حداجتك ثم تقبلينني وتضمينني إلى صدرك وتتساءلين:

ترى ماذا كنت أفعل لو لم يرافقني طفلي!؟

تقع، كل يوم، آلاف الحوادث العقيمة فلماذا لا يتفق لمثل هذا الحادث أن يحظى بأن يكون حقيقة واقعة!.

---

(٢) تقريب الجواد: عدوه.

لعله أن يشابه قصة في كتاب، وقد يعلق عليه أخي: تراه ممكنًا؟

إنني أتمثله جد طريف.

وقد يردد أهالي القرية جميعًا: أفليس من الحظ أن يكون هذا الطفل إلى جانب أمه؟

النهاية

أزف وقت رحيلي، يا أمي، فأنا ذاهب.

حين تمدين ذراعيك، في الغلس[1] الشاحب من الفجر المنزوي نحو وليدك في السرير، سوف أقول لك: ليس طفلك هنا، أماه، أنا ذاهب.

سوف أحول إلى زفرة طرية من النسيم تداعبك، سوف أحول إلى غصون الماء حين تستحمين فيه فألثمك وألثمك.

وحين يجلد المطر، في الليالي العاصفة، أوراق الشجر، سوف تسمعين، وأنت في السرير همسي، وسوف تشع ضحكتي مع البرق، وتنسرب من النافذة المفتوحة إلى غرفتك.

وحين تأوين إلى مضجعك وينقضى هزيع كبير من الليل وأنت تفكرين بابنك، سوف أغنى لك من ذري النجوم: نامي يا أمي نامي. ولسوف أتدحرج على أشعة القمر الهائمة حتى أشارف سريرك وأضطجع على صدرك وأنت نائمة.

سوف أنقلب إلى حلم وأنزلق من أجفانك المنفرجة حتى أصل

---

(١) الغلس: ظلمة آخر الليل.

إلى أغوار نومك، وحين تستيقظين وتجيلين طرفك حواليك، مأخوذة، سوف أنطلق في الظلمة، مرفرفا، كأنني يراعة مضيئة.

وفي عيد (بوجا) الكبير حين يقدم أطفال الجيران ليلعبوا، في فناء الدار، سوف أذوب في موسيقا الناي وأخفق في قلبك، سحابة اليوم.

سوف تقدم خالتي الطيبة. حاملة هدايا عيد (بوجا)، وسوف تسألك: أين طفلك يا أختي؟

سوف تقولين لها في رقة: إنه في إنسان عيني، إنه في جسدي، إنه في روحي!

النداء

كان الليل داجيا حين مضت، وكانوا مستغرقين في سبات.

الليل حالك، الآن، وإنني أناديها: عودي يا حبيبتي فإن الكون غاف، وقد لا يدري أحد إذا قدمت لتمكثي فترة قصيرة، بينا تتلامح النجوم.

لقد مضت، حين كانت الأشجار مبرعمة، وكان الربيع في سحرة شبابه.

إن الأزهار منورة الآن، وأناديها: عودي يا حبيبتي، الأطفال يقطفون الأزهار، ثم يبعثرونها في غمرة لهوهم الغافلة، وإن عدت وتناولت زهرة صغيرة، فلن يشعر أحد بفقدانها.

إن الذين كانوا يلهون لا يزالون يستمرئون اللهو– فما أكثر ما تبدد الحياة!

وأصغى إلى لغوهم، وأقول: عودي يا حبيبتي، فإن قلب أمك يطفح بالحب، حتى حفافيه، فإن عدت وخلست منها قبلة صغيرة واحدة، فلمن ينفس بها على أمك أي إنسان.

طلائع الياسمين

آه، يا لهذا الياسمين، هذا الياسمين الأبيض!

أحسب أنني لا أزال أذكر اليوم الأول الذي ملأت فيه ذراعي بهذا الياسمين، بهذا الياسمين الأبيض.

لقد شغفت بنور الشمس، بالسماء، بالأرض الخضراء.

لقد تناهى إلى سمعي الخرير الناعم من النهر المترقرق في ظلمة منتصف الليل.

لقد سعى الخريف وغروب الشمس إلى لقائي، عند منعطف الطريقي، في العزلة المنزوية، كعروس تحسر خمارها لتستقبل حبيبها.

لما تزل ذاكرتي معطرة، بطلائع الياسمين الأبيض الذي ملأت به ذراعي، حين كنت طفلا صغيرًا.

لقد مرت في حياتي أيام رغيدة، ولقد ضحكت، مع اللاهين، في ليالي الأعياد.

وفي الأصباح المربدة الممطرة، جعلت أنغم شتى الأغاني الوانية.

لقد أحطت عنقي بطوق مسائي من زهر الباكولا، مضفور بيد الحب.

لما تزل ذاكرتي معطرة بطلائع الياسمين الريان الذي ملأت به ذراعي، حين كنت طفلا صغيرًا.

شجرة البانيان

يا شجرة البانيان، أنت يا ذات الذروة المشعثة، التي تنتصبين على ضفة البركة، تراك نسيت ذلك الطفل الصغير، كما نسيت العصافير التي عششت فوق أغصانك ثم هجرتك.

ألا تذكرين كيف كان يتخذ مجلسه قرب النافذة، ليتأمل في جذورك المتشابكة في الأرض.

سوف ترد النساء البركة، ليملأن جرارهن، وظلك الكبير الأسود يرتجف على صقال الماء، كأنه النعاس الذي يغالب اليقظة.

كانت أشعة الشمس تتراقص فوق الماء الجعد كأنها مكوك دقيق لا يأتلي ينسج بساطًا من ذهب.

وكانت بطتان تسبحان قريبًا من الضفة المعشوشبة، وكان الطفل يجلس، هادئا مفكرًا.

كان يتمنى أن يصبح الريح التي تهب بين أغصانك الهامسة، أن يصبح ظلك الذي يتطاول مع امتداد النهار فوق صفحة الماء، أن يصبح عصفورًا يحط فوق أعلى غصن لك، ثم يستدف[1] كهاتين البطتين، بين الأعشاب والظلال.

---

(1) استهدف الطائر: طار قريبًا من الأرض.

بركة

بازك هذا القلب، هذه الروح البيضاء التي ظفرت بقبلة السماء، من أجل الأرض.

إنه يحب نور الشمس ويحب نظرة أمه إليه.

لم يتعلم بعد، أن يحتقر التراب وأن يطمع بالذهب، ضمه إلى قلبك وباركه.

لقد جاء هذه الأرض المتشعبة إلى مائه مفرق طريق.

لا أدرى كيف اختارك من بين الجمع الغفير، وكيف قدم إلى بابك، وصافح يدك، طالبًا أن تهديه إلى طريقه.

سوف يتبعك، ضاحكا، لاغيًا، لا تنسم في قلبه أي ريبة.

احتفظ بثقته ودله على الطريق القويمة وباركه.

أبسط يدك فوق رأسه وادع أن ينساق النسيم إليه، من العلاء، مهما ارتفعت الأمواج متوعدة، ليملأ أشرعته وينحو به إلى مرفأ الأمان.

لا تنسه وأنت تمضي مسرعًا، دعه يقدم إلى قلبك، ثم باركه.

الهدية

أود أن أقدم إليك هدية يا طفلي، فإن تيار الكون يجرفنا.

سوف تهفو حياة كل منا في سبيلها وسوف يضحى حبنا منسيا.

ولكنني لست من الحمق، بحيث أتمنى أن أشترى بهداياي، قلبك.

إن حياتك لغضة الشباب، وإن طريقك لطويلة، وإنك لتنهل المحبة التي نزجيها إليك في جرعة واحدة ثم تدور على عقبيك وتعدو بعيدًا عنا.

إنك منصرف إلى لعبك مع لداتك، فأي خير إن لم تولنا وقتًا أو تفكيرًا.

وفي الحق إننا لنستطيب أن نحصي، في شيخوختنا، أيامنا الغابرة وأن نعطف في قلوبنا على ما فقدته أيدينا أبدًا.

إن النهر يجرى سريعًا، وهو يغني، ويحطم أمامه السدود كلها، ولكن الجبل القائم الحالم بذكرياته، يتابعه بوجده.

أغنيتي

سوف تلفك أغنيتي بنعمتها، يا طفلي، كأنها أيدي الحب العاشقة.

سوف تلامس أغنيتي جبينك كأنها القبلة المباركة.

وحين تضحى وحيدًا، فلسوف تجلس إلى جانبك، وتهمس في أذنيك.

وحين تغيب في جموع الناس فلسوف تحميك بسياج من العزلة.

سوف تصبح أغنيتي كجناحين لأحلامك، ثم تنحو بقلبك إلى حدود المجهول.

سوف تضحى كنجم أمين، في العلاء، حين يغلف الليل الحالك دربك.

سوف تسكن أغنيتي إلى أجفانك ثم تحمل نظرتك إلى قلب الأشياء.

وحين يلوذ صوتي بالصمت، في الموت، فلسوف تتردد أغنيتي في قلبك الحي.

الطفل الملاك

إنهم يصيحون ويقاتلون، يحك في صدورهم الشك واليأس، إنهم لا يعرفون نهاية لمنازعاتهم.

دع حياتك يا طفلي، تتألق بينهم، كشعلة من ضياء سني نقي، دعهم يفزعوا، مبهورين، إلى الصمت.

إنهم قساة في جشعهم وحسدهم، إن كلماتهم كمدى خبيئة ظمأي إلى الدم.

اذهب إلى هذه القلوب المعذبة، وقف بينها، ووجه إليها نظرتك الرقيقة، كالسلام الرحيم المتطامن من المساء إلى كفاح النهار.

دعهم ينظروا إلى وجهك يا طفلي، ليتأتى لهم فهم معنى الأشياء كلها، دعهم يحبوك، ليحب بعضهم بعضًا.

تعالى واجلس في قلب اللانهاية يا طفلي، وحين ينشق الفجر، افتح قلبك ولرفعه كزهرة منورة، وأحن رأسك حين تغرب الشمس، وتمم، في صمت، عبادة النهار.

العقد الأخير

– ألا من يستخدمني لديه!

هذا ما كنت أردده، عاليًا، في الصباح، وأنا أسير في الطريق المعبدة الحجرية.

ومر ملك مستقلا مركبته، وفي يده سيفه.

وأمسك بيدي، ثم قال: إنني أستخدمك، على أن أدفع أجرتك، مشاركتك لي في سلطاني.

ولكن سلطانه لم يكن يحتوي على شيء، ومضى بمركبته.

وفي الظهيرة القائظة، كانت أبواب الدور القائمة مغلقة.

وأخذت، أضرب، هائمًا، في درب ملتوية.

وتقدم شيخ يحمل سفطًا مليئا بالذهب.

وفكر ثم قال: إنني أستخدمك على أن أنقذك أجرتك من مالي.

وجعل يعد نقوده، قطعة، قطعة، ولكنني انكفأت راجعا.

وكان الوقت مساء، وكان سياج الحديقة كله مزهرًا.

وتقدمت الفتاة الوسيمة وقالت: إنني أستخدمك، على أن أمنحك أجرتك ابتسامة.

غير أن ابتسامتها شحبت، واطرت دموعها باكية، وعادت، وحدها، وغابت في الظلام.

وكانت الشمس تتألق فوق الرمال وكانت الأمواج تتلاطم جامحة.

وكان ثمة طفل جالس، يلهو بالأصداف.

ورفع رأسه وبدا كأنه يعرفني وقال: إنني استخدمك، على ألا أدفع شيئا أجرة لك.

ومنذ أن تم الاتفاق على هذا العقد الذي جرى وأنا ألهو مع طفل، فقد أصبحت رجلا حرًا.

الفهرس